# متاعب على الحدود الليبية !

فى تلك الأيام خفت فقدان كل من أبى وأمى فكانا فى حالة حزن عميق وكان حادث موت أخى من الطبيعى أن يؤثر فيهما إلى هذا الحد . ومرت الأيام بطيئة لا طعم لها ولا معنى ، فالحزن العميق بمثابة المرض : له آلامه وأعراضه التى تعزل الإنسان عن سير الحياة الطبيعية ، وكان كل من أبى وأمى قليل الكلام ويزيد هذا من أعراض الحزن والألم . وفى الحقيقة خفت عليهما . وبالتدريج تقبلا الأمر الواقع على أنه إرادة ربنا سبحانه وتعالى ، وقرر أبى أنه يجب علينا الابتعاد عن القاهرة حتى نرى الأمور بوضوح أكبر . وحدث أننا ذهبنا إلى الإسكندرية . ولكنها كانت فترة فى غاية الصعوبة واجتازها أبى وأمى بشجاعة وبإيمان واضحين . ومرة أخرى صح ما يقال عن أن البعد عن الشىء يوضح الرؤية ، إذ أن المشاعر دائما مرتبطة بأماكن محددة وتصبح – بالوقت – جزءا لا يتجزأ منها ، والقوة الجبارة التى يكتسبها الإنسان فى إيمانه بالله هى القادرة على أن يعود الإنسان إلى نفس المكان ، ويضيف إليه تجارب أخرى مصطحبة بمشاعر جديدة تجعل من التجربة الأليمة ماضيا يعيش فى كيانه ، فالماضى دائما موجود معنا ومن الصعب تجنبه ، ولكن يجب تجاوزه حتى

تستكمل مسيرة الحياة . وهذا كان رأى أبى ، وهكذا تجاوزنا هذه التجربة الأليمة .

وبعد عودتنا من الإسكندرية تغلبنا على حزننا ودخلنا مرة أخرى فى سير الحياة اليومية . واستمر أبى وأمى يزوران أخى فى قبره كل يوم خميس لمدة عشر سنوات حيث كانا يسمعان تلاوة آيات من القرآن الكريم وبعد ساعة أو ساعتين كانا يعودان إلى البيت . واستمر هذا الوضع حتى بدأ أبى يشكو من ركبتيه اللتين بدأتا تؤلمانه عند المشى . وكنت كثيرًا ما أرافقهما فى زيارة مدافن الأسرة هذه ، ولكننى كنت أحيانا أعتذر عن عدم مرافقتهما . ومنذ أن وقع حادث أخى ساد كلا من أبى وأمى لون من الحزن لازمهما حتى وفاة أبى مؤخرا ومازال يلازم أمى حتى اليوم . المهم أن أبى رغم كارثة موت أخى قد استكمل مسيرته فى الحياة ، ويرجع ذلك إلى إيمانه القوى وتعمقه فى الدين ، ثم إنه عرف كيف يفصل بين حزنه الشخصى وبين واجباته فى الحياة . ففى سنة ١٩٨٠ التحق بالكتابة فى مجلة أكتوبر حيث كان يكتب مقالات تُعَد من أجمل ما قرأته أنا فى فن المقالة الأدبية بالعربية . ثم أنهى كتابه « أطلس تاريخ الإسلام (١٩٨٧) الشهير وأتم نشره ، وأنهى أيضا كتابه عن سيرة الرسول محمد ﷺ وكتابات أخرى كثيرة . فتقبل موت أخى بفضل إيمانه القوى ، ولم يفرض حزنه على أحد أبدا لأن أخى رحمه الله – رغم وفاته – استمر يعيش داخل قلب كل من أبى وأمى فكيف ينسى أبوان فقدا ابنا

لهما ؟ هذا – بطبيعة الحال – مستحيل فلا يعوض فقدان الابن شيء فى الدنيا .

من الأشياء المحزنة الأخرى التى مرت على أبى قبل ذلك كانت نكسة ١٩٦٧ . وكنا فى أسبانيا وكنا دائما نتابع أخبار مصر فى الصحف الأجنبية والمصرية والإذاعات وعن طريق سؤال القادمين من مصر . فطوال مدة وجودنا فى أسبانيا كانت مصر من أهم المواضيع والمحاور فى حياتنا . أتذكر كيف فوجئ أبى وأمى بحرب ١٩٦٧ . وتذكر أمى أنها عندما سمعت ببداية الحرب فتحت أطلسا لكى ترى فيه بالضبط موقع إسرائيل والبلاد العربية التى تحاربها على الخريطة ، واطمأنت عندما رأت أحجام البلاد المختلفة على الخريطة . وعندما حدثت النكسة كان خيبة أملها واندهاشها عظيمين .

وأذكر كيف جمع هذا الحادث المؤلم بين جميع المصريين فى مدريد ، أى أعضاء السفارة المصرية وأعضاء معهد الدراسات الإسلامية ، وكانوا كلهم متوحدين ويعايشون الأحداث التى تقع فى مصر ومنطقة الشرق الأوسط كلها خطوة خطوة ، وكانوا كلهم فى دهشة وتعجب وخوف . وكانت الأخبار التى تسمع من خارج البلاد تظهر أكبر حجما وأبشع فظاعة . أتذكر أنه منذ نكسة ١٩٦٧ بدأ أبى يرتدى ربطة عنق سوداء ولم يخلعها إلا بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣ فقد كانت مصر – كما كان يردد دائما –

مرتبطة بنبض دمه . وكان كثيرا ما يحكى لنا أنه لم يتخصص فى تاريخ مصر أيام إعداده لنيل درجة الدكتوراه بسبب حبه لوطنه . وذلك لأنه كان يخشى أن هذا الحب كان يؤدى ألا يكتب عنها بطريقة موضوعية حيادية وأنه لذلك اختار التخصص فى التاريخ الإسلامى وبالذات فى تاريخ الأندلس . والحق أنه كان دائما فيما يخص كتاباته التاريخية موضوعيا بقدر المستطاع إذ كان دائما يعرض جميع نواحى الموضوع الذى كان يتناوله ، وكان يرجع لمختلف المصادر حتى يصبح ما يكتبه فى التاريخ دائما كلاما علميا يُعتمد عليه . وكان كثير المراجعة لمؤلفاته التاريخية .

أما كتابته لمقالات مجلة أكتوبر فكان يتخذ لها طريقة أخرى : كان يخصص لمقالة أكتوبر يوم الجمعة من كل أسبوع . وكان يبدأ بعد الإفطار مباشرة . ويبدو لى أن المقال كان جاهزا فى ذهنه فى الصباح ، إذ كان يكتب بدون انقطاع وكان ينهيه قبل ميعاد الغذاء بقليل . وكان يتوقف لأداء صلاة الجمعة التى كان يصليها ظهرا دائما فى البيت ثم يستأنف الكتابة بعد ذلك . ثم كنا نتناول الغذاء خارج البيت . أما بعد ظهر نفس اليوم فكان يقرأ المقال مرة واحدة بغير أن يدخل فيه أى تغيير ولم يكن يعيد كتابته أبدا ، فكان المقال يخرج فى قلمه منضبطا من المرة الأولى سواء من ناحية الأفكار التى يتضمنها أو الشكل الذى يصدر به . ثم كان يجمع الأوراق ويطويها ويضعها فى ظرف أبيض ويكتب عليه « مجلة أكتوبر – مع التحية » ثم يمضى .

أقول إن القارئ سوف يلاحظ أن أبى كان يؤيد دائما رئيس مصر أيا كان مادام كان خط عمله متفقا مع صالح البلاد . ولا يرجع ذلك أبدا إلى أى نوع من المجاملة ، فلم يكن ذلك من صفاته . لقد كان دائما يحترم نفسه ويحفظ لقلمه كرامته ؛ ويشهد بذلك كل من عرفه ولكننى أعتقد أنه كان يؤمن فى إخلاص بأن الرئيس قدوة مهمة ومادام وجده الشعب قويا عرف إلى أين يتجه وفى من يثق . فكان أبى مؤمنا بأن إصلاح الحال أمر ضرورى من أجل التقدم والترقى والتحسن ولكنه كان يؤمن بإصلاح ما هو موجود وكان عدو فكرة الهدم ثم إعادة البناء .

وعندما ننظر إلى هذه المقالات التى كتبها لمجلة أكتوبر عبر ستة عشر عاما بمعدل مقال أسبوعى فى مجموعها تمثل تاريخ مصر الاجتماعى لمدة ست عشرة سنة ، فهى تتناول جميع الموضوعات التى اجتذبت اهتمام المجتمع المصرى بدءا بالمشاكل اليومية إلى مواضيع تمس مختلف الشئون الحكومية إلى مجالات الفن المختلفة إلى الشخصيات الأدبية فى مجتمعنا ، فكان رحمه الله يحس بنبض حياة مجتمعنا ويعبر عنه بأسلوب يشد كل من يقرأه . وكثيرا ما كنت أقابل أناسا من قرائه يقولون لى : « إن أباك قال فى مقالته الأخيرة ما كان على طرف لسانى ولا أجد الكلمات المناسبة لأعبر عنه » .

وكانت مقالاته فى مجلة أكتوبر بمثابة ضمير الأمة ، وكان عادة يعرض المشكلة ويناقشها ثم يقترح حلولا لها . فكانت أفكاره تمثل حلولا لمشاكل اجتماعية كثيرة وتفتيحا لطرق ورؤى جديدة ، وكان يساعده على ذلك علمه الموسوعى وحبه لوطنه . وكان دائما مفكرا فعالا ومشاركا برأيه ، وكان قد اختير لذلك عضوا فى كثير من المجالس القومية الحكومية التى تناقش وتكوّن مستقبل مصر .

والمواضيع التى كان يطرقها كانت تمس أساسا مشاكل مصر الاجتماعية ، ثم كان يربط ما بين الماضى والحاضر فى المواضيع التى كان يكتبها عن تاريخ مصر المعاصر والتاريخ الإسلامى والدين الإسلامى ، وكانت فكرة أن معرفة الماضى معرفة متعمقة تساعد بدون شك على السير أو التوجه نحو مستقبل أفضل وتشهد مقالاته فى أكتوبر على ذلك .

أتذكر أنه عندما بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان أبى يعمل أستاذا بجامعة الكويت وكان أخى طالبا فى كلية الطب بجامعة القاهرة وكنت أنا قد تخرجت فى نفس السنة فى قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة الكويت وكنت فى القاهرة أيضا ولم أعيّن بعد للعمل . وأتى أبى وأمى من الكويت لحضور جلسة قضية مهمة فى محكمة ما فى القاهرة وكانا منشغلين بها . وجاءنا ضيف

صديق فى البيت يوم ٦ أكتوبر بعد الظهر وسأل إن كنا سمعنا عن بداية الحرب ولم نكن قد علمنا شيئا عن ذلك ، لأنها كانت حربا فاجأت الجميع وبدأت فى ميعاد غير تقليدى أى فى الثانية ظهرا . وأخرت الحرب عودة أهلى إلى الكويت وذلك لأن المطارات قد أوقفت عملها العادى . فاضطرا أن يسافرا بسيارة أجرة « بيجو » بالنفر عن طريق ليبيا . فركبا السيارة مع ثلاثة آخرين من بينهم سيدة يوغوسلافية وبدأوا الرحلة بعد الظهر . كان من المقرر أن يصلا إلى الكويت عن طريق بنغازى بليبيا بالسيارة ثم من بنغازى إلى اليونان بالطائرة ثم من اليونان إلى الكويت بطائرة أخرى . واستوقفت السلطات المصرية سيارة الأجرة هذه أكثر من مرة فى الطريق الصحراوى إذ كان هذا الطريق مليئا بالجنود . ومرة من هذه المرات لم توافق السلطات المصرية أن تكمل السيارة رحلتها إذ كانت فى السيارة تلك السيدة اليوغسلافية التى شكّوا فى أمرها . فحدث كلام كثير وبدأت السيدة تبكى إذ كانت تخشى أن يتركوها وحدها مع الجنود المصريين فى الطريق الصحراوى . وتدخل أبى بشهامته المعتادة فى الموضوع وقال إذا لم يتركوا السيدة الأجنبية هذه تستكمل السفر معهم فسيظل جميع من فى السيارة معها . وكان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل والمكان صحراوى وخالٍ تمامًا . كان من عادة أبى دائما أن يدافع عن الضعيف أيا كان هذا الضعيف . وكثر الكلام وتدخل فى الموضوع كل

الموجودين بآرائهم . واستمرت تلك السيدة فى البكاء وأمى تواسيها . وأخيرًا وافقت السلطات المصرية على أن يكملوا كلهم السفر وبالذات بعد أن تعرفوا على شخصية أبى فكان من بين الجنود من قرأ له فى وقت من الأوقات . وعندما دخلوا حدود ليبيا عن طريق السلوم تعرضوا لتفتيش « وحشى » لحقائبهم إذ تركت حقائب الركاب الخمسة مفتوحة وملقاة على الأرض . وعندما طلبوا أن يساعدهم أحد فى حمل الحقائب رفض الليبيون ذلك قائلين « نحن لا نحمل حقائب مصريين » .

ويرجع ذلك التصرف الليبى بطبيعة الحال إلى أن علاقات مصر السياسية بليبيا لم تكن على ما يرام فى هذه الفترة ، فتصرفت السلطات الليبية على الحدود بمقتضى ذلك الوضع السياسى الرسمى . وتذكر أمى أنها انزعجت ولكنها كانت – فى نفس الوقت – قد تعودت على التصرف الانفعالى التلقائى الذى هو من سمات الشخصية العربية . ومن الطريف هنا أنه بعد هذا الحادث ببضع سنوات أتت إلى أبى سيدة ليبية لكى تسجل معه رسالة لنيل درجة الدكتوراة فى التاريخ . وكانت محترمة جدًّا وتعمل بجدية . وبعد أن ناقشت رسالتها عينت مديرة مكتب الرئيس القذافى فى ليبيا . وبناءً على مثل هذه التجارب – وهى كثيرة العدد – تعلمت أمى تقبل شخصية العرب المتقلبة وفهمتهم وأحبت الكثيرين منهم .

المهم ، بعد الرحلة المتعبة من القاهرة لبنغازى بات أبى وأمى

فى ليبيا فى فندق قابلا فيه مصريين آخرين . وكانوا جميعًا يحاولون أن يعرفوا أخبار الحرب ، وفوجئوا بأن أخبار حرب مصر لم تذع فى الإذاعة الليبية إلا بكلمات قليلة وسطحية فى آخر النشرة .

وبعد يومين تقريبا وصل أبى وأمى إلى الكويت ودخلا البيت بشارع بغداد بحى السالمية بعد منتصف الليل ، ولم يكد باقى سكان العمارة يعلمون بوصولهما – وكانوا كلهم أساتذة فى الجامعة وأغلبهم مصريون – حتى استيقظوا وذهبوا إليهما يسألونهما عن أخبار مصر وكانوا جميعًا يسمعون أخبارًا جيدة فى الإذاعة ولا يصدقونها ، وذلك لأن انتصار أكتوبر ٧٣ كان مدهشًا ومذهلا وعظيما ومفاجأة سارة : كان الرئيس السادات قد نبه عن طريق الصحف والإذاعة فى عام ١٩٧٢ أنها ستكون سنة حاسمة وأنه سوف يهاجم إسرائيل . وأتذكر أن عام ٧٢ مضى كله بدون أن تُعلن أى حرب وكنا ننتظرها – أى الحرب – حتى ٣١ ديسمبر ، وفى صباح أول عام ٧٣ ظننا جميعًا أن الجيش المصرى ربما لم يكن مستعدًا لمثل هذه الحرب . لذلك عندما وقعت بالفعل شعرنا جميعًا بفخر واستعادة كرامتنا ، وكان وقوعها مفاجأة كبيرة . خلع أبى فى هذا الوقت ربطة العنق السوداء التى كان قد بدأ ارتداءها بعد نكسة ١٩٦٧ .

تتذكر أمى أنه حدث فى مرة أنها هى وأبى كانا عائدين من

الكويت لقضاء العطلة الصيفية فى مصر . وكان على أبى أن يمر على لبنان لعمل ما يتعلق بنشر كتاب له . فحجزا تذاكر على طائرة سودانية كانت ستنقلهما من الكويت للبنان ثم – بعد يوم – من لبنان إلى القاهرة . وقرب بيروت تعطل محرك الطائرة السودانية . فأنزلوا الركاب فى فندق وقالوا لهم إنهم سيظلون فى هذا الفندق على حساب شركة الطيران السودانية حتى يتم إصلاح الطائرة . وقضوا ثلاثة أيام تقريبا فى هذا الفندق والطائرة لم تصلح .

كانت إقامتهما – حسب كلام أمى – فى فندق « نص – نص » وكانوا يحضرون فى مطعم الفندق منضدة طويلة لكى يجلس عليها ركاب الطائرة ، وكان الطعام المقدم كل يوم عبارة عن صينية كبيرة توضع فى نصف المائدة وبها « مكرونة سباجيتى » ويغرف منها كل راكب لنفسه . وإلى جانب ذلك كانوا يقدمون خبزا و « سلطة » فقط . حدث ذلك كل يوم لمدة ثلاثة أيام ، فألحّ أبى على العاملين بالشركة حتى يعرف حقيقة العطل ولماذا لا يأتون بطائرة أخرى فقالوا له إنه ليس بالسودان إلا طائرتان فقط : واحدة منهما يستعملها رئيس الجمهورية أما الثانية فهى تمثل الخطوط الجوية السودانية وتخصص للركاب والرحلات ، ولذلك فليس هناك مفر من انتظار إصلاح عطل الطائرة . وعندما علمت أمى بذلك رفضت تماما أن تسافر على هذه الطائرة لأنها

لم تضمن سلامتها واضطر أبى إلى أن يحجز تذكرتين على خطوط جوية أخرى .

إن أمى خلال فترة زواجها من أبى لم تتعرف على مصر والمصريين وطبيعتهم فحسب بل تعرفت أيضا على أناس كثيرين من بلدان عربية أخرى ، ويرجع ذلك أساسا إلى انشغال أبى فى تخصصه الذى كان يجعله يخالط عربًا يشاركونه التخصص وكان بينه وبينهم اتصالات وعلاقات عمل . ثم ساعد على ذلك أيضا إقامتهما فى دولة الكويت التى تجمع جميع الجنسيات العربية . وأذكر أنهما حكيا لى قصة وصولهما من أسبانيا رأسا إلى الكويت وهما بلدان يختلف كل منهما عن الآخر فى كل شىء . كانا قد سافرا إلى الكويت وحدهما إذ كنا أنا وأخى لا نزال نستكمل دراستنا فى أماكن أخرى .

أبي مع ياسر عرفات وأسرة مجلة أكتوبر .